إبراهيم بن محمد بن على التازي ت 866 هـ (نزيل وهران)

{حياته وآثاره الشعرية}

أ. عبد الرحمان عبان
أ.د. العيد جلولي
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

Abstract:
This article includes an account on the character of ibrahim attazi life who lived in the 9th hegerian century, and a study of his poetry with religious educational tendency which was derived from the coran and prophet speeches (hadith). It included prayers (ad'ia), reminding (adhkar) and general advice for his followers as well to warn them from life wrongdoing and direction to allah worshiping and permanent mentions.

الملخص:
يتضمن هذا المقال ترجمة لشخصية إبراهيم التازي نزيل وهران في القرن التاسع الهجري، ودراسة لشعره ذي الاتجاه الديني التربوي المستمد من القرآن والحديث النبوي، وهو عبارة عن أدعية وأذكار ونصائح عامة موجهة إلى المريدين مع التحذير من غرور الدنيا والحث على عبادة الله وذكره الدائم.

ترجمة حياته :

الشيخ أبو سالم، و أبو إسحاق(1) إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي، نزيل وهران(2)، الإمام العالم الناظم البليغ، الوليّ الصالح، صاحب الكرامات، من مواليد مدينة تازه بالمغرب الأقصى في أواخر القرن الثامن، حفظ القرآن و تتلمذ على يد الشيخ يحي الوزاعي الذي اعتنى به كثيرا، ومن تازه إلى الحجاز ثم تونس ثم هاجر إلى تلمسان وتتلمذ على يد الشيخ محمد بن مرزوق الذي كتب له إجازة عام 832هـ(3) و يشير ابن صعد إلى أن إبراهيم التازي قصد وهران لزيارة الشيخ محمد الهواري(4) ، وكان اللقاء بين الرجلين و الانسجام الكبير الذي حدث بينهما، جعل التازي يجد بغيته في الشيخ الهواري، ووجد الهواري فيه التلميذ الذي يمكن أن يكمل مشوار تصوفه وطريقته من بعده، فالتازي لازم الهواري وأقام عنده في زاويته بوهران نحو عشرة أعوام(5) ثم استقر نهائيا في وهران و أنشأ زاوية خاصة به(6).

* نشاطه في وهران : مكث التازي بوهران حوالي أربعة وثلاثين عاما، حيث لازم الشيخ الهواري بها، إلى أن استقل بزاويته الخاصة فيها و ظل يشتغل بالعلم والتصوف حتى وفاته بها، ويمكن إجمال نشاطه و أعماله بوهران في الأمور التالية(7) :

- خدمة شيخه محمد الهواري .
- جمع كلام شيخه.
- بناء زاوية خاصة به.
- السهر على أمور الزاوية و تنظيم شؤون زائريها من المريدين و طلاب العلم .

- ثقافته وشخصيته:

روافد ثقافته: كان القرآن الكريم والحديث النبوي السمة الواضحة في ثقافة إبراهيم التازي، فقد اشتغل بهما، فاعتنى بقراءة القرآن منذ صباه على يد شيخه أبي زكريا يحي الوازعي، ومعرفته بعلم الحديث و مشاركته في روايته و تدريسه. وكان التازي متميزا في قراءة القرآن، فقد كان أحسن الناس صوتا و أنداهم في تلاوة آياته و تجويده.

فقد كان السامع يقف لطيب نغمته، و تحن القلوب لجودة قراءته(8) و هذا ما دفع القائمين بشؤون الحرم الشريف بإيثاره بإمامة الناس في صلاة التراويح يقول ابن صعد: " وقدمه مشيخة الحرم الشريف لصلاة الأشفاع في رمضان، واتفقوا على أنه أحس القراء تلاوة، وأزينهم طلاوة وحلاوة و أمتنهم معرفة و ديانة "(9) فقد كان مقدما في علوم القرآن وعلوم اللغة وحافظا للحديث بصيرا بأصول الدين و أصول الفقه.(10)

2* التصوف: يعد من أهم روافد ثقافة إبراهيم التازي، فبه عرف بين معاصريه، كما عرف بورعه وزهده، وقد ساعده على ذلك رحلته الحجازية التي وسعت ثقافته وخبرته بالحياة والناس، و ارتباطه الوثيق بالشيخ الهواري في وهران الذي غير مجرى حياته، إذ وجد البيئة الصالحة للاستقرار، فأقام بوهران مشتغلا بالتصوف، و ثقافته الصوفية هي التي مكنته من تدريس كتب شيخه الهواري .

3* الأدب: هو أحد مكونات ثقافة إبراهيم التازي، فهو ينقل الروايات المختلفة حول تاريخ الإسلام و تراجم الاعلام ومناقب الرجال، كما ينقل أخبار الأدب ورواياته، لاسيما ما له علاقة بموضوعات الزهد والتصوف والمواعظ. فقد أشار ابن صعد إلى بعض مروياته بالسند المتصل إلى محمد بن أبي العتاهيه قال:قال الخليفة هارون الرشيد لأبي العتاهية:"عظني" قال : أخافك،قال: أنت آمن .فأنشده:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منا و متـــــــرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

قال: فبكى الرشيد حتى بل ثوبه.(11)

و إبراهيم التازي يعد في جملة الشعراء، ويتمحور شعره في التصوف والزهد وهو شاعر متمكن من فن النظم، مرهف الإحساس فياض المشاعر يقول ابن صعد: " وكلام سيدي إبراهيم في منظوماته على الطريقة التصوفية و الإشارات العرفانية و الأمداح النبوية لا يقوم بمعناه إلا من تمكنت معرفته واتسعت في علوم اللسان مادته، وعلت في درجة الولاية رتبته و ذاق من طعم الحب و الشوق ما بهرت به ولايته " (12)

*شيوخ التازي و تلاميذته:

ا)شيوخه:

- يحي الوازعي
- تقي الدين أحمد بن على الحسيني الفاسي
- أبوا الفتح المراغى المدني {775-859 }
- العبدوسي تـ 849 هـ
- محمد بن مرزوق تـ 842 هـ
- محمد عمر الهواري تـ 843هـ
- صالح بن محمد الزواوي { 760-839هـ}

بـــ) تلاميذه:

- محمد بن عبد الله التنسي تـــ 899 هـــ
- ابو عبد الله السنوسي {839-895هـــ}
- علي التالوتي 895هـــ
- عبد الجبار الفيجيجي (820هـــ - 918هـــ)
- إبن زكري 899هـــ
- أحمد زروق {846-899 هـــ}
- الراشدي عمر بن سلمان الجزائري نزيل تونس تـــ 868هـــ
- أحمد حجي الوهراني
- القلصادي تـــ 891هـــ {صاحب الرحلة}
- إبن صعد 901هـــ

*آثاره: شعر إبراهيم التازي : لعل أكبر مجموع لشعر ابراهيم التازي هو الذي احتفظ به "ثبت" أبي جعفر أحمـــد بـــن علي البلوي الوادي آشي، الذي أثبت خمس عشرة قصيدة تامة كاملة. وهذه القصائد هي نفسها التي تتم الإشارة إليها أو إلى جملة من أبياتها في معظم الكتب التي عنيت بالترجمة لإبراهيم التازي ومنها النجم الثاقب و روضة النسرين لابـــن صعد، والبستان لابن مريم، ونيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي .

*موضوعات شعره: يغلب على قصائد إبراهيم التازي :

- الموضوع الديني و هو الأبرز وهو عبارة عن أدعية و أذكار وابتهالات ونصائح عامة، و الشوق إلى بيت الله الحرام وذم الدنيا وهو منهج الطريقة الصوفية بالإضافة إلى المدائح النبوية وكل قصائده ذات توجه تعليمي تربوي واضح انظر على سبيل المثال قوله:

سلامة الصدر من خير الخصال فمـــن أتى بقلـــب ســـليم ربـــه سعـــــدا
والحقد طبع ذميم عدّ عنه و عـــــذ بالله رب العلا من شر مـــن حقـــدا
وجنب الحسد المذموم صاحبـــــــه مارئ قط حسود ساد أو مجدا

وساهم إبراهيم التازي في حركة التصوف، فقد اشتهر بقصيدته المعروفة بالمرادية ومطلعها قوله :

مرادي من المولى وغاية آمالي دوام الرضى والعفو عن سوء أعمالي(13)

ومن أهم الموضوعات ذات الصلة بالتصوف و الدين ، الحض على زيارة أولياء الله الصالحين، وذلك في قوله:

زيارة أرباب التقى مرهم يبـــري ومفتـــاح أبـــواب الهدايـــة والخيـــر
وتحدث في القلب الخلـــى إرادة وتشرح صدرا ضاق من ســـعة الـــوزر
وتنصر مظلوما و ترفع خـــاملا وتكســـب معـــدوما وتجبـــر ذا كســـر
وتبسط مقبوضا وتضحك باكيا وترفد بالبذل الجزيل وبالأجر(14)

ونفحات الزهد بادية في القصيدة التالية من البحر الكامل: (15)

يا صاح من رزق التقى وقلى الدنـــا نال الكرامة والسعادة والغنـــــى
فاصرف هوى دنياك،و اصرم حبلهـــا دار البلايا و الرزايا و العنـــــا
و ودادهـــــا رأس الخطايـــــا كلهـــــا ملعونة، طوبي لمن عنها انثنى

لا تغتـــرر بغرورهـــا فمتاعهـــــا عرض معد للزوال و للفنـــــا
لعب ولهو زينة و تفاخر لا تخذعنك جنانها مر الجنـــى

يتمتع الشيخ إبراهيم التازي بثقافة متينة، وله شعر غزير في أغراض شتى خاصة الزهد والتصوف وذم الـدنيا نورد فيما يلي نماذج عديدة و مشوقة منها:

قوله في ذم الدنيا من البحر الوافر(16) :

أمـــا آن ارعـــواؤك عـــن شـــنار كفى بالشيب زجرا عـــن عـــوار*
ابعـــد الأربعـــين تـــروم هـــزلا وهل بعد العشـــية مـــن عـــرار**
فخل حظـــوظ نفســـك والـــه عنهـــا وعـــن ذكـــر المنـــازل والـــديار
وعدّ عـــن الربـــاب وعـــن ســـعاد وزينـــب والمعـــازف و العقـــار
فمـــا الـــدنيا وزخرفهـــا بشـــيء ومـــا أيامـــــــها إلا عـــواري
ولـــيس بعاقـــل مـــن يصـــطفيها أتشتري الفوز و يحـــك بالثبـــار
فتب واخلع عذارك في هـــوى مـــن لـــه دار النعـــيم و دار النـــــار
جمـــال الله أكمـــل كـــل حســـن فللـــه الكمـــال ولا ممـــــاري
وحـــب الله أشـــرف كـــل أنـــس فلا تـــنس التخلـــق بالوقـــــار
وذكـــر الله مـــرهم كـــل جـــرح وأنفـــــع مـــن زلال لـــلأوار
ولا موجـــــــود إلا بالله حقـــــا فدع عنك التعلق بالشنـــــار

فظاهرة الزهد بادية في هذه القصيدة وهي كلها مواعظ وحكم ترتبط بآيات القرآن وتستدعي نصوص الأحاديـث النبوية لتتكامل مع طريقته الصوفية ومنهجه في الحياة .

فالزهد سلوك يومي يربي عليه اتباعه حتى تصفو نفوسهم من شهوات الدنيا الزائلة .

و للتازي قصيدة ربانية من بحر الطويل يشرح منهجه في الحياة التعبدية يقول فيها :

حسامي ومناهجي القـــويم وشـــرعتي و منجاي في الدارين من كـــل فتنـــة
محبـــــة رب العـــــالمين و ذكـــــره على كل أحيـــاني بقلبـــي و لهجتـــي
و أفضل أعمـــال الفتـــى ذكـــر ربـــه فكن ذاكـــرا يـــذكرك بـــاري البريـــة
و أفضل ذكـــــــــر دعوة الحي فلتكن بها لهجا فـــي كـــل وقـــت وحالـــة

وله ايضا (17) في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم والشوق إلى الحرمين:

أبت مهجتي إلا الولـــوع بمـــن تهـــوى فدع عنك لومي والنفوس وما تقـــوى
هو أن الهـــوى عـــز وعـــذب أجاجـــه و علقمه أحلا من المـــن والســـلوى
ولـــيس بحـــر مـــن تعبـــده الهـــوى للهو الدنا، فاختر لنفسك مـــا تهـــوى
فما الحب إلا حب ذي الطـــول والغنـــى وأملاكه و الانبيا و أولـــى التقـــوى
وخيرة رسل الله أفضل خلقه محمد الهادي إلى جنة المأوى

* عواز: العيب والعار.

** عرار : نبات طيب الرائحة.

وله ايضا في الربانية والحب الإلهي (18)

روحي وراحة روحي ثم ريحـــاني و جنتي من سرور الانس و الجـــان
و مأمني وأماني من سعير لظـــى ذكر المهيمن فـــي ســـر وإعـــلان
ومدح أحمد أحمى العالمين حمى وذو المقام الذي ما قامه ثاني

ويتبين مما سبق من شعر التازي أن معظم قصائده تتمحور حول الدين وما يتصل به، وهي معبرة عن اتجاهـــه الصوفي، هدفها تقوية حالة الاتباع والمريدين وتثبيت سلوكهم العاطفي.

وخلاصة القول أن شعر إبراهيم التازي في أغلبه ذو اتجاه ديني بالمفهوم الواسع للدين وهذا ما يجعل القصـــيدة لديه فضاء(19) لكل ماله صلة بهذا الموضوع من أغراض متنوعة، فقد يخرج أحيانا من الزهد إلى الوعظ و الإرشـــاد والتحذير من الدنيا و الهوى إلي الحض على زيارة الأولياء الصالحين إلى الحث و على زيارة قبر المصطفى وحـــب آل البيت ونستشف من شعر التازي الأفكار الصوفية المتداولة في تلمسان ووهران خلال القرن 9 الهجري فضلا عـــن مسالك التربية العلمية.(20)

يعبر التازي في كل شعره التربوي التعليمي عن ربانية عايشها تقوم على عبادة الله بدون فتور و لا ملل لإسعاد الروح بالذكر الدائم المستمر و ملء كل أوقاته بذكر الواحد الأحد وتلاوة القرآن والصلاة . منسجما مع التوجيه الرباني القرآني " قل إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين، وبذلك امرت وأنا أول المسلمين"(21) فالتـــازي يعلن منهجه ويدعوا إليه في لغة و جدانية مؤثرة بقول :

حسامي و منهاجي القويم وشـــرعتي و منجاي في الدارين من كل فتنـــة
محبـــــة رب العـــــالمين وذكـــــره على كل أحياني بقلبـــي ولهجتـــي
وأفضل أعمال الفتى ذكر ربه فكن ذاكرا يذكرك رب البريئة

فهو يعيش بالذكر ومحبة الله لا يشغله شيء عن الخالق فلا يستمع إلى صوت اللائمين في إرادة قوية انظر إلـــى قوله:

أبت همتي إلا الولوع بمن تهـــوى فدع عنك لومي فالنفوس و ما تقـــوى
هوان الهوى عز وعذب أجاجه و علقمه أحلى من المن و السلوى

إلى أن يقول:

فما الحب إلا حب ذي الطول والغنى و أملاكه والأنبياء و أولى التقوى

فمن الجلي أن التازي سلك مسلك الربانين في شعره، لا مدائح في شعره للملوك والأمراء وان أمدوه بالصـــلات ولا غزل أو رثاء فشعره عموما شعر علماء فقد خرج من بلدة تازة بالمغرب من أجل تحصيل العلم ولقاء شيوخه ثـــم أصبح متصوفا يميل إلى حياة الزهد وأخيرا شيخ زاوية مهمته تربية المريدين وتعهدهم بالرعايـــة والتعلـــيم والتوجيـــه والإرشاد. فجاء شعره معبرا عن وظيفته متوجها بها إلى مريديه وتلاميذه وحين ذاع صيته كزاهد كبير رباني، انتشـــر شعره بين الناس، لكونه غني بالمعاني التربوية والأخلاقية. فقد كان مجتمع العلماء نموذجا حيا للتربية السامية المتمثلة للقيم و زادهم التواضع رفعة وحضورا في ضمائر الناس. فمعظم الذين ترجموا أشاروا إلى قصائده الشـــعرية.وعـــاش التازي في عصر ازدهر فيه شعر المولديات {المدائح النبوية} فمظاهر الاحتفال بالمولد النبوي لاسيما في تلمسان كـــان لها أثرها في البناء الفني لقصائد الشعر آنذاك وعلى جمالية تلقيها. فالمولديات والابتهالات والمنظومات العلمية والدينية صار لها جمهورها من المتلقين بحكم موضوعها وبساطة معانيها وسهولة أسلوبيها و وضوح منهجها، فقصائد إبـــراهيم

التازي تتميز بتلك المميزات المشار إليها آنفا، فهي موجهة إلى جمهورها المتلقي من المريدين وطلبة العلم في الزوايا والمساجد. الذين يتفاعلون معها ويحفظونها عن ظهر قلب.ويحسون بجمالها و إيحاءاتها مبنى ومعنى، وإن اتسمَ شعره بالمباشرة والبساطة الذي يتناسب مع طبيعة المتلقين في عصره. وينسجم مع شخصيته التعليمية، فهو صاحب رسالة يومية و مهمة عملية. وينسجم كذلك مع التوجه العام للدولة الزيانية والرأي العام الشعبي كذلك. فجمال قصائد التازي الشعرية يكمن جمالها في تعبيره عن ذاته وتصوفه وروح عصره بلغة تميزت باليسر في ألفاظها والبساطة في تراكيبها وبأسلوبها المباشر المستمد من ثقافة التازي العربية الإسلامية.

ومن المعلوم أن تلمسان و وهران في القرن التاسع كانتا مدرسين في التربية الروحية معرفة وتسليكا يتغنى علماؤها بقصائد الوعظ و الإرشاد و المنظومات التعليمية عموما، فقد كانت قصائد الشيخ إبراهيم التازي تـ 866هـ تتناقل بالأسانيد المتصلة فكان منها ما رواها عنه تلميذه الشيخ لعلامة محمد بن عبد الله بن عبد الجليل المغراوي التنسي التلمساني صاحب{ الطراز في شرح ضبط الخراز}(22) فمواعظ التازي في قصائده لم تكن جافة، ولم تكن موجهة للعامة فقط بل للخاصة كذلك، تبرئة للذمة، وشعورا بالمسؤولية في تبليغ دين الله إلى الناس،والقيام بواجب النصح للجميع تدل عليها عناوينها ومنها قصيدته المعروفة { النصح التام للخاص والعام} أورد فيها نصحا عاما لكل فئات الأمة و أفرادها قائلا :

وغادر الغدر فالغدّار مفتضح يوم التنادي وحاذر من به عهدا
والمكر لا تأته عقباه خاسرة لؤم وشؤم على أصحابه البعدا
رذيلة لليهود البهت تعرف، لا للمسلمين الكرام الا نفس السعدا
والكبر كبر خرق التواضع من شمائل العقلاء السادة الصعدا
فمن تواضع وقاه الإله ومن تكبر اتضع اسمع واتبع الرشدا

وهذه القصيدة غنية بالقيم التربوية و الأخلاقية يدعوا فيها التازي إلى التحلي والالتزام بهذه المعاني السامية. كما يتوجه إلى الأمراء والحكام في قوله:

والعدل أوصى به العدل العلي فكن عدلا يحبك من لم يتخذ ولدا
والجور خسر،دمار،حسرة ندم والله بالنصر مظلوم قد وعدا
والبغي عاجلة فاعلم عقوبته فاحذره لا سيدا يبقى و لا لبدا

فقد كان شعر العلماء والفقهاء نموذجا للتربية السامية المتمثلة في الدعوة إلى التحلي بالقيم الايجابية في الميدان الاجتماعي و الأخلاقي. وكانت للتازي مشاركة هامة وفعاله في الدعوة إلى الالتزام بالدين والقيم الأخلاقية تماشيا و انسجاما مع ذاته ومجتمعه، انه في تصويره لاتجاهه الديني الأخلاقي دعته الضرورة الدينية الاجتماعية، فنهج نهج سابقيه من الشعراء.(23) في حثه على الالتزام والتحلي بالخلق الفاضل، وهذا باستعمال التعليم والنصح و الإرشاد و توجيه المجتمع توجيها خلقيا دينيا كقوله على سبيل المثال :

إن شئت عيشا نعيما و إتباع هدى فاسمع هديت وكن بالله معتضدا
شرور نفسك باعدها تصب رشدا فمن يطع ربه والمصطفى رشدا
دنياك دار غرور حبها سفه رأس الخطايا فمن يغرم بها بعدا

إلى أن يقول:

سلامة الصدر من خير الخلال فمن أتى بقلب سليم ربه سعدا
والحقد طبع ذميم عد عنه وعذ بالله رب العلى من شر من حقدا(24)

- ويربط التازي تخلق الإنسان بالدين، و حري بالصالح المتأدب أن يصحح توبته إلى مولاة فيقول:

فزر و تأدب بعد تصحيح توبة تأدب مملوك مع الملك الحر

و خلاصة القول أن شعر إبراهيم التازي جاء معبرا عن شخصيته الربانية التي تعيش من أجل غاية واحدة وهي العبودية لله والدعوة إليه، لذلك جاء معجمه الشعري معجم شعراء التصوف رغم بساطته و مباشـــرته اللغويـــة فأغلـــب قصائده نظمت لتنشد عقب الوظائف و الأوراد التي كانت تتلى في مقر زاويته .

المصادر والمراجع :

(1) التنبكتي، نيل الابتهاج، مكتبة الثقافة الدينية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية 1991ج 1 ص49

(2) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، موفم للنشر ط 1- 1991ج 1 ص 249

(3) ابن صعد، روضة النسرين، مخطوط: خ.ع.ك 1006ص 508

(4) المصدر نفسه ص 508

(5) المصدر نفسه ص 508

(6) المهدي لعرج، ديوان إبراهيم التازي، كتاب ناشرون 2013ص 15

(7) المصدر نفسه ص 16-15

(8) ابن صعد، روضة النسرين ص 506 ، ينظر الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ج1ص 250

(9) نفسه ص 504

(10) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين ج 6ط1-1983ص 649

(11) ينظر ثبت أحمد بن علي البلوي الوادي آشي ودراسة عبد الله العمراني، دار الغرب الإسلامي ط1-1983ص 327

(12) المصدر نفسه ص 329

(13) المصدر نفسه ص 336

(14) المصدر نفسه ص 334

(15) المصدر نفسه ص 336

(16) المصدر نفسه ص 357

(17) المصدر نفسه ص 341

(18) المصدر نفسه ص 342-341

(19) المهدي لعرج ، ديوان إبراهيم النازي، ص66.

(20) عمار جيدل ، مجلة الوعي ، العدد المزدوج(3-4) 2011 ، ص 105-106.

(21) سورة الأنعام، الآية رقم 163.

(22) المهدي لعرج، ديوان إبراهيم التازي ص 67.

(23) ينظر مولاي عبد الرحيم،مجلة القضاء المغاربي ، العددان {8-9} ماي 2014ص 127

(24) ثبت الوادي آشي، ص 353